حُبُّ شمشون

القسّ عيسى دياب

يقدّم لنا سفر القضاة قصّتَي حبّ لشمشون، تكادان تلخّصان قصّة حياته: الأولى مع فتاة فلسطينية، لم يأتِ النصّ على ذكر اسمها (١٤:١ - ١٥:٨)، والثانية، الأكثر شهرة وتفصيلاً، مع دليلة (١٦:٤-٣١).

تقول القصة الأولى، وإنْ أخذَت أهميةً أقلّ من القصة الثانية، أنّ شمشون نزل إلى مدينة تمنة حيث «رأى امرأة من بنات الفلسطينيين»، فطلب من أبيه وأمّه أن يتّخذاها له زوجةً، وكانا مقيمَين آنذاك في بلدة صرعة التابعة لقبيلة الدانيين، التي كانا منها، وتبعد ٢٥ كلم إلى الغرب من أورشليم. وتمنة مدينة في جبال يهوذا (يش ١٥:٥٧)، وفي الطريق إليها، التقى يهوذا بكنّته تامار التي تنكّرت بزيّ زانية وأغوته فمال إليها (تك ٣٨:١٢-١٤). وبالرغم من معارضتهما لزواجه من فتاة «من الغلف»، الكنعانيين الوثنيين، انصاعا لأمر ابنهما الوحيد النذير الذي وُلِد لهما بمعجزة، غير عالِمَين «أن ذلك من الرب، لأنه كان يطلب علة على الفلسطينيين، وفي ذلك الوقت كان الفلسطينيون متسلكين على إسرائيل» (آ ٤). وكانت النتيجة أنّ أبويه خطباها له، وبعد أيام، عاودوها ليتمّ الزواج بحسب التقاليد ويضمّوها إلى عائلتهم. تحت ضغط شبان محاربين من شعبها، خانت الفتاة زوجها، بالاحتيال عليه وإفشاء سرّه، بينما كانت الاحتفالات بالزواج ما زالت دائرة. وكانت النهاية دراميّة: «فصارت امرأة شمشون لصاحبه الذي كان يصاحبه» (١٤:٢٠)، الأمر الذي دفعه ليحرق حقول الفلسطينيين (١٥:٤-٥)، وعلى الأثر، أحرقها الفلسطينيون وبيت أبيها (آ ٦).

أمّا القصّة الثانية، التي تعتبر العمود الفِقَريّ لسيرة حياة شمشون، لأنّ كل الأحداث المهمة في حياته متعلقة بها، فتنتهي بمأساة أكبر. أحبّ شمشون دليلة التي من وادي سورق (١٦:٥)، المشهورة بكرومها والواقعة في سهل الشويلة (السهوب الصخرية الممتدة من عجلون في الأردن حتى غزة في فلسطين). كانت دليلة، كسابقتها، أداةً بيد الفلسطينيين المرتعبين من شمشون، لمعرفة سر قوته «الخارقة» والتعامل معها بما يناسب لإضعافها. بعد ثلاث محاولات فاشلة: ربطه بسبعة أوتار طرية (آ ٧-٩)، ربطه بحبال جديدة (آ ١١-١٢)، تضفير شعره الطويل مع سَدَى النول (آ ١٣-١٤)، استطاعت دليلة أن تجعل شمشون يفشي لها بالسر: «لم يعلُ موسى رأسي لأني نذير الله من بطن أمي، فإن حُلِقتُ تفارقني قوّتي واضعف وأصير كأحد الناس» (آ ١٧). استعملت دليلة كل ما وُهبت من قوة إغواء مستغلة تعلّق شمشون بها، فأنامته على ركبتيها ودعت رجلاً فحلق له شعر رأسه ففارقته قوته وابتدأت بإذلاله، فسلّمته للفلسطينيين الذين أذلوه بطرق متنوّعة أودت في النهاية بحياته بعد إسقاط هيكلهم على مَن فيه (آ ٢٣-٣٠).

تحليل النصّ

بما يتعلق بالنصّ، يقع القارئ على صعوبات كثيرة من حيث وحدة الفكرة والمنطق الديني، فكيف يُعقل أنّ نذيراً، كانت ولادته معجزية، ودعوته ربانية، يختار لنفسه، في القصتين، أن يتزوج من فتاة كنعانية وثنية؟ وكيف يُعقل أيضاً أن يكون، في أمرٍ مصيريّ، عبداً لغرائزه ونزواته، فيستجيب لغوايات هاتين المرأتين ويفشي لهما بمكنونات قلبه المصيرية، وهو «الشوفيط»، القاضي

المرسَل من الله ليحرر شعبه؟ وكيف لم يتعلم من القصة الأولى، فيقع في نفس الفخ في القصة الثانية؟ والأغرب من كل ذلك، كيف يحلّ عليه روح الرب ويستخدم فيه قوته «الخارقة» لخلاص إسرائيل وهو خاتم بين يدي نسوة وثنيات استغللن غرائزه لإحكام السيطرة عليه خدمة لشعبهنّ؟ وكيف اعتُبر شمشون، في التقليد اليهوديّ، من «أبطال الإيمان» (عب ١١: ٣٢) ولا يوجد انسجام بين مسلكيّته والمعيار الخلقي في الديانة اليهودية؟

لا شك أن النصين المستعرَضين أعلاه، كمجمل نص سفر القضاة، مركّبَين من عناصر دينية واجتماعية قديمة ومتقدمة. فواضح أنّ النصّ يكشف عن قصتين غارقتين في القِدَم، تنتميان إلى التقليد الإسرائيلي القصصي القديم الذي انتقل بالتواتر الشفهي ثم كُتِب في وقت ما. وما يكشف عن قدمهما عناصر اجتماعية ودينية قديمة اصبحت في التقليد الإسرائيلي بمثابة الميثولوجيا المقدسة: الطريقة التي ظهر بها الملاك إلى والدَي شمشون، طريقة تقديم الذبيحة في العراء وليس على المذبح أو في هيكلٍ ما، الولادة المعجزية، الشعر الطويل الذي يُكسِب الإنسانَ قوة «خارقة»، حين تلبس صاحبها تُمكّنه من القيام بأعمال بطولية غير عادية. كل هذه ما هي إلا عناصر فكر ديني غارق في القِدَم كما نعلم من علم «تاريخ الأديان».

لكنّ النصّ يكشف أيضاً عن عناصر تنتمي إلى فكر ديني متقدم في إسرائيل: شخصية الملاك التي لم تظهر في إسرائيل إلا في حقبة ما بعد السبي، روح الرب الذي يحل على النذير، الله يستخدم أموراً، تُعْتَبر في الظروف العادية خطيّة كبيرة، كالزواج من امرأة كنعانية، لتحقيق غاية ربانية، تماما، كطلبه من نبيِّه هوشع أن يتزوج من جومر، المرأة الزانية (هو ١: ٢). إن هذا، باعتقادنا، ما هو إلا محاولة تفسيرية لاهوتية، أُدخِلت على النص في وقت لاحق، لتبرير تصرف شمشون المنافي لمبادئ الشريعة، إذ أن الشريعة تمنع زواج الإسرائيليين من الكنعانيين (خر ٣٤: ١٦ وتث ٧: ٣)، والفلسطينيون معتبَرون في عداد الكنعانيين (يش ٨: ٣).

غرض الكاتب الملهَم

يتناول الكاتب، وهو بعيد في الزمن عن الحقبة التاريخية التي يعكسها سفر القضاة، قصتَي حبّ من التراث الإسرائيلي القديم، ويحاول أن يشرح كيف بدأ الصراع الطويل بين الاسرائيليين والفلسطينيين، هذا الصراع الذي سيأخذ كامل الفترة المتبقية من حكم القضاة وحتى دخول الملكية مع شاول وخاصة داود. يقول الكاتب: «ولم يعلم أبوه وأمه أن ذلك [زواجه من فلسطينية] من الرب لأنه كان يطلب علة على الفلسطينيين» (١٤: ٤). ونسأل هنا: مَن الذي كان يطلب علة على الفلسطينيين، شمشون نفسه أم الله؟ يعتقد بعضُ الشراح أن الجواب هو الله الذي كان يهيِّئ السبب، العلة، التي بسببها سيُظهر غضبه على شعبٍ وثني[١]. لكنّ قسماً آخر من اللاهوتيين يعتقدون أن طالب العلة هو شمشون، وبذلك يرفعون من شأن تصرفه هذا ويبرّرونه على أنه دعوة من الله لتتميم دعوته: تحرير الشعب من العبودية.

يعتقد البعض أن شمشون تصرّفَ في القصة الأولى بإيحاء من الله في سبيل إيجاد «علة على الفلسطينيين»، بينما في القصة الثانية، يظهر (شمشون) وكأنه متباهٍ بانتصاراته، فلا يأبه للدخول في تجربة ثانية مثيلة، لكن كان فيها يجرب الرب، الأمر الذي قاده إلى خراب نفسه[٢]. إن للصراع مع الفلسطينيين شروطاً دينية: المحافظة على شرائع النذير. سيظهر هذا الأمر في سفر صموئيل الأول بصورة المحافظة على الشرائع المقدسة المتعلقة بالاهتمام بتابوت العهد (١صم ٤: ١-١١). ويمكن أن تكون الصورة أوسع من ذلك، وهي صورة الصراع الطويل الذي دار بين الإسرائيليين والوثنية المتمثلة بالشعوب التي حاربت إسرائيل: الأشوريون والكلدانيون. فقد انكسر إسرائيل أمامهم لسبب ممارسته لوثنيّتهم وعدم احترامه للشريعة الموسوية الملخَّصة بشريعة السبت (١أخ ٣٦: ١٢ مع لا ٢٥: ٤-٥؛ ٢٦: ٣٤-٣٥ و٤٣).

كثيراً ما دخلت الوثنية في حياة قادة إسرائيل عن طريق النساء. أوجز الكاتب نهاية حياة سليمان بهذه الكلمات (١مل ١١: ١-١٠):

«وأحبّ الملك سليمان نساءً غريبة كثيرة مع بنت فرعون: موآبيات وعمّونيّات وأدوميّات وصيدونيّات وحيّيّات، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا

١- Frédéric Godet et al., *Juges, Ruth, 1 et 2 Samuel* (collection Bible Annotée, AT3; Neuchâtel: Attinger Frères, [1]1892.; St-Légier: Bibliothèque de l'Institut Emmaus, [2]1981) 144.

٢- *Id.*, p. 148.

يدخلون إليكم لأنهم يُميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمانُ بهؤلاء بالمحبة... وكان في زمان شيخوخة سليمان أنّ نساءه أَمَلْنَ قلبه وراء آلهة أخرى...».

نتذكر أيضاً، في السياق نفسه، دور إيزابل، المرأة الصيدونية في حياة الملك آخاب. لقد أدخلت هذه المرأةُ العبادات الكنعانية في إسرائيل وترأّست جماعة من كُهّان الإله السوري «بعل»، فحاربت إيليا نبيّ الله وجرّت زوجها إلى عباداتها الوثنية والتنكر للديانة الاسرائيلية القديمة وألزمته بتصرفات لاخُلُقية قضت عليه في النهاية (١مل ١٩:١-٢؛ ٢١:١-١٥ إلخ...).

صحيح أن شمشون لم يذهب إلى هيكل الإله الفلسطيني داجون بخاطره، لكن لا أحد ينكر أنّ ما أوصله إلى ذلك المكان كانت دليلة التي أحبّها والتصق بها. هذه هي قصة سليمان، آخاب، وكثير من ملوك وقادة إسرائيل لكن بِصُوَر مختلفة.

الرسالة الروحية والخلقية

لقد دعا الله شمشون لـ «يبدأ يخلّص إسرائيل من يد الفلسطينيين» (قض ١٣:٥). واستطاع أن يتمّم المهمة فقط جزئياً. إضافة إلى ذلك، انتهت حياته بمأساة. كان شمشون نذيراً لله، وقد ميَّزه الله بقوة «خارقة» وبحلول الروح القدس عليه، ولولا أنّ نقطة ضعفه استبدّت به، لكان تمكّنَ من القيام بإنجازات أكبر، ولكان لاقى نهاية حياة أفضل. أما نقطة ضعفه فكانت عدم ضبط غرائزه الطبيعية (البهيمية). ليس المطلوب إنكار هذه الغرائز، فهي حاجة طبيعية خُلقنا فيها، والجسد البشري يعمل بهذا الشكل ولا اعتراض على خليقة الله، وفي هذا حكمة إلهية، إذْ بهذه الطريقة يتكاثر النسل البشري، ولأنّ هذه الغريزة توجد في الإنسان حوافز تدفعه للقيام بإنجازات كبيرة لخير البشرية. هذا في حال نُظِّمت هذه الحاجة في حياة الإنسان وأُشبِعَت بطرق شرعية ضمن الأغراض السامية التي تتضمنها. أما انفلات هذه الغرائز من كل شرع وقانون وضبط، فيودي بالفرد إلى مدارك الإنحطاط والبهيمية.

لقد خلط شمشون بين الحب والجنس فتناولهما بمعايير متنافرة متباينة. لا أحد يستطيع أن يفصل الحب عن الجنس، فهذا الأخير، فضلاً عن أنه حاجة بيولوجية في حياة الإنسان، هو وسيلة للتعبير عن الحبّ البشري، قمّة الحبّ، بل لربما تجسيد بشري، مادي للحب الإلهي، أليس الإنسان مخلوقاً على صورة الله؟ ولكي يكون الجنس تعبيراً نبيلاً لحب بين رجل وامرأة، يجب أن يكون الحب متكافئاً مخلصاً مضحّياً مكرّساً من قِبَل طرَفَي الحبّ. أيّ حبّ هذا الذي دخل فيه شمشون مع امرأتين كانتا مثالاً للخيانة فاستغلّلْنَ محبته لهنّ واستعملن السلاح النسائيّ الأقوى: الإغراء بل الغواية. أما الأولى فأفشت سره لأعدائه، وأما الثانية (دليلة) فقد باعته لأعدائه بأبخس الأثمان. لم يكن الحب متكافئاً، لكن كانت الغرائز صارخة. وعندما يعلو صوت الغريزة على صوت الحب، ولا تكون تلك استجابةً لنداءِ هذا، يصبح الجنس زنًى وبهيمية من قِبَل إنسان مخلوق بأبعاد روحية إلهية.

ذاك هو شمشون الإنسان، أما شمشون المكرّس، فالضبط لديه يجب أن يكون أقوى وأحكم. في الإنسان المكرّس، يختلف سلّم الأولويات حيث تصبح الدعوة أولاً ثم تأتي بعدها مهمات الحياة الأخرى. قلب الإنسان يرغب ويشتهي أطايب هذه الحياة، وله حق في الحصول عليها طالما هذا لا يُلحق الضرر بإنسان آخر، أو بالإنسان نفسه وبحياته الباقية. أما في حالة «الدعوة أولا»، فقد يضطرّ المكرّس أن يلجأ إلى «قلع العين» الشريرة و«بتر اليد» المعثِرة (متى ٥:٢٧-٣٠) و«قمع الجسد» المنفلت (١كو ٩:٢٧) و«ترويض النفس» لعمل التقوى والفضيلة.

إن قصة حب شمشون ترينا، من جهة أخرى، الأنانية البشرية، كيف أنّ إنساناً موهوباً مدعوّاً، خصّه الرب بمواهب ومَلَكات فكرية أو مهارات مميّزة أو إمكانيّات مادية، لخدمة الجماعة التي دُعِيَ ليخدم في وسطها، لكنه يستغل هذه العطايا الإلهية لخدمة مصالحه الذاتية. لذلك فالذي عنده و لم يستخدمه بحسب إرادة الله يُؤخذ منه (متى ٢٥:٢٩).

إن قصة حب شمشون ترينا أيضاً كيف أن رجلاً عظيماً يضرب بعرض الحائط نصائح الشيوخ وكبار السن والأهل والعائلة، فلا يقيم اعتباراً لهذه كلها بل يعمل بمشتهى قلبه وانفلات غرائزه. فسرعان ما يتدهور هكذا إنسان إلى أدنى درجات الانحطاط.

لكنْ شمشون، أخيراً، هو الإنسان الذي احتوى خميرةَ الإيمان، وشعلة الدعوة الإلهية، وإن ابتعد أو ضَلّ طريقه تحت وطأة الضعف البشري وضغوطات الحياة الدنيا. فهذه «الخميرة» وهذه «الشعلة» لن تموتا، بل ستحيان فيه بعمل الروح القدس، الرب المحيي: «وإن كان روح الذي أقام يسوع من الأموات ساكناً فيكم، فالذي أقام المسيح من الأموات سيُحيي أجسادكم المائتة أيضاً بروحه الساكن فيكم» (رو ٨:١١).